2000 0413-0008-f

مَنْ وراء حادثة البوسطة التي اشعلت الحرب؟

الجميّل اتهم أجهزة مخابرات والصلح أشار الى اياد غريبة
اده: أضع كل المسؤولية على بيار الجميّل

ربع قرن لم يكف لاماطة اللثام عن اسرارها الحقيقية وخفاياها. ذكرى ١٣ نيسان ١٩٧٥ ترجع بقوة الى الحاضر المرتبك القلق، وتدق ابواب المستقبل بلا وجل او تردد، كأنها تمتحن اللبنانيين في تماسكهم وعيشهم المشترك وحقيقة تجاوزهم الانقسامات.

بعد ربع قرن، تنبثق الذكرى من رحم التاريخ، منهكة، مثقلة بالدموع والدماء وآلاف الضحايا قيل انهم سقطوا من اجل الوطن، ومفقودين من مختلف الطوائف والفئات، وبصور سوداء وذكريات تنضح بالألم وصمت يخفي الكثير.

ماذا تحكي الذكرى في يومها التاريخي؟

شهودها كثر. منهم غابوا ودفنوا معهم سرها، ومنهم غَيبوا، وآخرون لم تقوَ عليهم الحرب. زاد عمرهم ٢٥ عاماً، وبقوا في الحياة السياسية او على هامشها. وتطل عليهم الذكرى في وقت صار فيه "اعداء" الماضي شركاء في مواقع، يحكمون للمستقبل او عليه.

في ١٣ نيسان ١٩٧٥، اشتعلت حربان قسمتا البلاد، الاولى حرب البنادق والمدافع والجبهات والشوارع، والاخرى حرب الاتهامات السياسية والحزبية والطائفية. وفي ١٣ نيسان ٢٠٠٠، افاق لبنان على مزيد من القذائف والاتهامات، لكنها اسرائيلية، موحداً، يفتش عن اجوبة لتساؤلات كثيرة تحركها الذكرى.

هل كان مجانياً ثمن دم مئات ضحايا الحرب، ام انها سقطت حقيقة من اجل الوطن والسلام فيه؟

في الذكرى، شهادات لسياسيين وحزبيين، اراد بعضهم عبرها محاسبة الماضي ومخاطبة المستقبل. ولعل المفارقة الاولى ان مواقف "اعداء" في تلك المرحلة لا تزال هي هي. لم يتغير شيء في زمن السلم والحوار الوطني، كأن التمسك بالآراء واجب لعدم التنصل من الماضي وخيانته.

والمفارقة الثانية ان متكلمين وجهوا صراحة اصابع الاتهام الى "اياد كثيرة... واجهزة مخابرات" ولكن من دون ان يسموها او يكشفوا هويتها وانتماءاتها السياسية... كأنهم يخشون، لو افصحوا عنها، اندلاع حرب كلامية جديدة.

في المقابل، هناك من آثر الصمت، "لان اثارة الذكرى لا تفيد اللبنانيين في شيء". وقال احدهم: "اذا اردت ان اتكلم، فعليّ ان ابوح بأشياء كثيرة اجهل ما سيكون وقعها على اللبنانيين". بالنسبة اليه، لم يحن الوقت لكشف المخبأ.

من يقف وراء الحادثة التي اشعلت الحرب في لبنان؟ سؤال وجهته "النهار" الى عدد من السياسيين والحزبيين ممن واكبوا تلك المرحلة. وتبقى شهاداتهم للتاريخ.

الجميل

رئيس الجمهورية الاسبق امين الجميل الذي كان نائبا آنذاك، قال: "من السذاجة اعتبار عام ١٩٧٥ بداية للحرب اللبنانية لاننا بذلك نتجاهل مرحلة نهاية الستينات حيث توالت الحوادث الخطيرة، سياسيا وميدانيا. فالصدامات الدموية بين الجيش والمنظمات الفلسطينية، والمخيمات وجوارها كالدكوانة وجسر الباشا والبداوي والمية ومية، كانت جزءا من الحوادث الامنية التي لا تحصى ولا تُعد، وقد تحصنت منذ ذلك الوقت المخيمات في مواجهة اي حضور لبناني أمني او رسمي.

ومن السذاجة ايضا اعتبار ان الحرب بدأت عام ١٩٧٥، اذ تذكرون ردود الفعل الاسرائيلية المتواصلة، وخصوصا الغارات التي طاولت مطار بيرت الدولي، وتدمير الاسطول الجوي اللبناني بالكامل. يضاف الى هذا البعد الخارجي، اغلاق سوريا الحدود وتهديد لبنان بالاجتياح العسكري في حال استمر في ضبط الامن.

اما من الناحية السياسية، فقد عاشت البلاد أزمة حكومية انعكست شللا عاما استمر ٧ اشهر، حتى تكللت بكارثة وطنية عبر توقيع اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩ الذي كرس شبه السيادة الفلسطينية على حساب السيادة اللبنانية.

وبعد فشل الجيوش العربية عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣ في استعادة الارض، اصبح المنطق الثوري سائدا، وتحولت المقاومة الفلسطينية وقادتها رموزا للقومية العربية، وخصوصا بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر.

اذاً، استنادا الى هذه المستويات الثلاثة، كيف يمكن طمس هذه الوقائع والقول ان الحرب بدأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥؟

في الواقع، ان ما تم في ذلك العام لا يعدو كونه حلقة من المؤامرة الشرسة في حق لبنان ومحطة جديدة في مسلسل استهدف بلادنا.

اما التبدل النوعي في منحى الحرب، فحصل خصوصا عندما تمكن وزير الخارجية الاميركي آنذاك هنري كيسنجر من ايجاد نوع من تفاهم ضمني سوري – اسرائيلي بشعار "الخطوط الحمر". وجاءت حوادث عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦ تجسيدا لهذا التحول، ونشأت مناخات جديدة في البلاد، منها التخوف من المناخ الذي أرساه كيسنجر لدى الاوساط اللبنانية والفلسطينية ومن التحضير السوري للتدخل العسكري في لبنان.

أجهزة مخابرات

قبل الاجابة عن سؤال من يقف وراء الحادث الذي أشعل الحرب، أردت وضع السؤال في اطاره العام بحيث لا ننسى الظروف المحيطة به والتي أدت الى تلك الحرب.

واذا عدنا الى ١٣ نيسان ١٩٧٥، وقرأنا الصحف الصادرة آنذاك، نستنتج ان ثلاثة حوادث وقعت في أقل من شهر، كل منها يكفي لاشعال نار الفتنة في الساحة اللبنانية، أي انه تم التحضير لهذه الفتنة في اي ثمن، وهذا لم يكن مصادفة.

أول هذه الحوادث كان اغتيال النائب معروف سعد في صيدا، ولا يزال الغموض مسيطرا على هذه القضية، رغم انه تبين شيئا فشيئا ان من يقف وراءها لا علاقة للبنان وللجيش به. ولم تتمكن الاجهزة الامنية من كشف الامر، لأن جهازا للمخابرات اكبر من كل أجهزة المخابرات اللبنانية كان وراء ذلك وهو الذي خطط لعملية الاغتيال.

الحادثة الثانية كانت محاولة اختطافي من امام منزلي في ٢٧ آذار ١٩٧٥، اي قبل اسبوعين من ١٣ نيسان على يد فصيل مسلح من بيروت بلباس لبناني وتحريك فلسطيني.

اذا اغتيال معروف سعد كان الشرارة الاولى، تبعتها محاولة اختطافي حتى وقعت الحادثة الثالثة في عين الرمانة. كل ذلك لم يكن وليد المصادفة.

اما في ما يتعلق بحادثة "بوسطة" عين الرمانة، فقد صرح الوزير السابق محسن دلول قبل اعوام قليلة الى جريدة "الحياة" انه تبين للحزب التقدمي الاشتراكي (كان نائبا للرئيس) عدم وجود علاقة لـ"الكتائب" بالحادثة، بل كانت هناك مؤامرة أكبر من الجميع.

في تلك المرحلة، كانت أجهزة المخابرات تجهز الاجواء اللبنانية للانفجار الكبير. وتفكي العودة الى الصحف للاستنتاج كيف كانت عناصر جاهزة تماما، اذ غداة حادثة "البوسطة" تم دخول باب ادريس وتحطيم محال للألبسة يملكها نعوم ابي راشد واحتلت تلك المنطقة. وفي ١٧ نيسان و١٨ منه تصدرت الصحف عناوين مثل: "جهنم في بيروت"، و"بيروت تحترق".

والملاحظ ان من حضّر لاغتيالي واغتيال سعد ولحادثة عين الرمانة كان يعد في الوقت نفسه رد الفعل عليها، مما ادى بالفعل الى تفجير الوضع برمته، بعدما تبين ان الرجال والأسلحة والاعلام كانوا على اهبة الاستعداد، في انتظار كبسة الزر التي تمثلت "بالبوسطة".

لئلا يعيد التاريخ نفسه

كل ذلك يؤدي بنا الى الاستنتاج الآتي: ان اجهزة المخابرات كانت من الناحية النفسية تعد الاجواء للحقد والتوتر بين الناس، والاعلام سخّر لذلك. ولسوء الحظ ان بعض الصحف اللبنانية التي انطلقت في هذه الحقبة اصبحت فجأة واسعة الانتشار في العالم العربي بعدما أغدق عليها المال، وانطلقت لبث هذه السموم في المجتمع اللبناني، ونذكر كيف شاعت تعابير مثل: القتل على الهوية، واقامة حواجز خطف ومتاريس الخ...

وبعد قراءة هادئة للامور، يتبين لنا ان اكثر حواجز الخطف في بيروت لم تكن وراءها احزاب لبنانية تقليدية، بل فئات مستوطنة حديثاً في لبنان في الشطرين الشرقي والغربي من بيروت.

اذاً، ١٣ نيسان حلقة من الحرب اللبنانية التي لم تنته بعد. وحبذا لو عاد الشعب اللبناني اليوم الى قراءة هادئة لكل ما جرى من حوادث، لئلا يعيد التاريخ نفسه.

واذا عدنا الى اتفاق القاهرة، نستنتج ان العناصر والاطراف التي فرضت على الفاعليات السياسية بسبب انفعال عاطفي، وعلى الحكومة اللبنانية توقيع الاتفاق، كانت نفسها التي ساعدتني عام ١٩٨٧ في الغاء هذا الاتفاق في مجلس النواب. لذلك، من الواجب الاتعاظ من هذه العبر لئلا نقع في الاخطاء القديمة نفسها.

وهذا الامر يدعو بعض الفاعليات الحالية الى التبصر باعتبار انها قد تثور في المستقبل على بعض التدابير الملزمة اليوم للحكومة اللبنانية، بعدما يتبين انها خطر كبير على لبنان. آن الآوان لنفهم ان لبنان واللبنانيين كانوا وقوداً لمؤامرة كبيرة، وأدوات لحرب لا علاقة لنا بها. وعلينا ان نفهم ان لا وجود لاشياء جوهرية تفرق بين العائلات اللبنانية وخلاص كل لبنان يكون بالاعتاظ من امثولة الماضي وفتح صفحة جديدة (...) يبقى ان نتعلم كيف نبلسم هذه الجراح ونبني المجتمع الذي يفوت علينا في المستقبل كل الويلات التي عشناها منذ ٣٠ عاماً.

الصلح

الرئيس رشيد الصلح الذي كان رئيس الوزراء في تلك المرحلة قال: "توليت رئاسة الحكومة في اواخر ١٩٧٤، اي قبل حادثة ١٣ نيسان بأربعة اشهر او خمسة. وكنا نشعر آنذاك بأن الوضع الامني في لبنان يوشك ان يختل جراء ظروف، بعضها داخلي، وبعضها الآخر خارجي. واذكر جيداً ان مدينة طرابلس، العاصمة الثانية للبنان كان يسيطر عليها شخص خارج عن القانون منذ وقت طويل. ففرضت الدولة وجودها وانزلت الجيش الى طرابلس، مما اعاد اليها الامن والطمأنينة.

وانتهت هذه الحادثة عند هذا الحد. غير انني كنت اشعر أن ثمة ايادي تسعى الى اثارة متاعب وفتن في لبنان. وبذلنا آنذاك المستحيل للتصدي لهذا الواقع المرير ومعالجته وفرض جو من الامن والطمأنينة على مختلف الاراضي اللبنانية. كان ثمة اياد وفئات كثيرة، اكثرها غريب عن لبنان، الا انها كانت توجه قسماً من اللبنانيين، لاثارة المتاعب والمشكلات والحوادث.

وجاءت حادثة ١٣ نيسان.

الجميع يذكرون كيف حصلت، ولا ضرورة لاعادة التذكير بها، لاننا نرغب في طي هذه الصفحات وعدم تذكير اللبنانيين بالحوادث المؤلمة في تاريخهم، كي يعيشوا جواً من الامن والطمأنينة والتفاؤل بمستقبل لبنان، وخصوصاً ان الحادثة حصلت قبل ٢٥ عاماً، وهناك جيل كبير من اللبنانيين لا يعلم تفاصيلها الا من كتب التاريخ ومقالات الصحف وما يتناقله الناس.

استطيع ان اقول ان الحادثة وقعت الاحد، وتمكنا من ضبط الامن واعادة الهدوء والاجواء الطبيعية الى مختلف المناطق، حتى انني نزلت صبيحة الاربعاء، اي بعد ٤٨ ساعة، الى بيروت، حيث تجولت برفقة نائب رئيس مجلس الوزراء آنذاك ميشال ساسين في البرج وباب ادريس، وشوارع بيروتية اخرى، ثم توجهنا الى مكتبنا في الوزارة.

جهات اجنبية

من جهة اخرى، احتفلنا بذكرى الشهداء في ٦ ايار في ساحة الشهداء المعروفة بساحة البرج، ومثلت آنذاك رئيس الجمهورية الراحل سليمان فرنجية والحكومة، واستعرضت فرقاً ووحدات من الجيش، واقمنا الحفلات التقليدية، تكريماً للذكرى.

اذكر كل هذه الامور للتدليل على ان حادثة ١٣ نيسان من صنع أياد لبنانية وقد تكون غير لبنانية، ولكن توجهها جهات اجنبية لا تريد الخير للبنان ولا لاهله.

واذا راقب المرء الوضع الذي عاشه لبنان آنذاك، وخصوصاً في بيروت ووسطها التجاري، وذلك بعد مدة قصيرة من حادثة ١٣ نيسان، "للمس" الايادي التي عملت على تدمير بيروت التي كانت تشكل الجوهرة ومنارة الحرية والتجارة والرخاء والثروة والسياحة في المنطقة العربية.

كان المقصود تدمير هذا الوجود اللبناني والقضاء على نموه.

واليوم استبعد ان تتكرر حادثة مماثلة لما حصل في ١٣ نيسان. اقول هذا، لأن المواطن اللبناني بدأ يصر على ابعاد بلاده عن اي مشكلة لانه لم يعد يتحمل ولم يعد يريد المشكلات لبلاده. صار لدينا وعي كاف، واهنئ الشعب اللبناني به، بدأ المواطنون يعيشون في جو من النمو والوعي، وهم حرصاء على استتباب الامن في وطنهم اكثر من اي بلاد اخرى، اضافة الى جو الوحدة الوطنية والالفة الذي نعيشه حالياً في لبنان والذي قلّ ان عاشته بلاد اخرى بهذه القوة".

اده

العميد ريمون اده النائب ورئيس حزب الكتلة الوطنية الذي كان يضم ستة نواب في ١٣ نيسان ١٩٧٥ قال: "كنت صباح الحادث في بلدة المية ومية اتفقد أوضاع اهاليها وبينهم مسيحيون، ويقوم على مقربة منها مخيم للفلسطينيين.

الجميل.

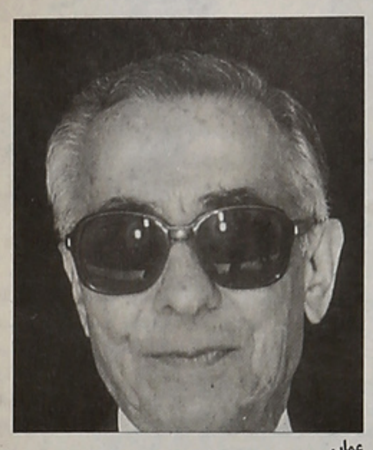
عمار.

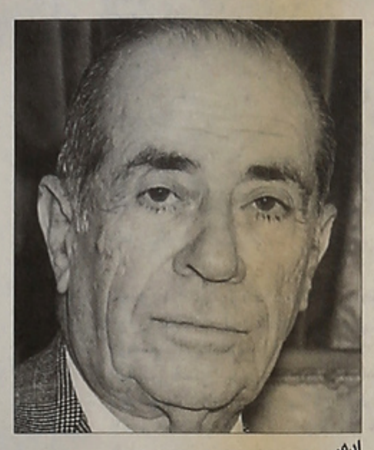
اده.

غانم.

الصلح.

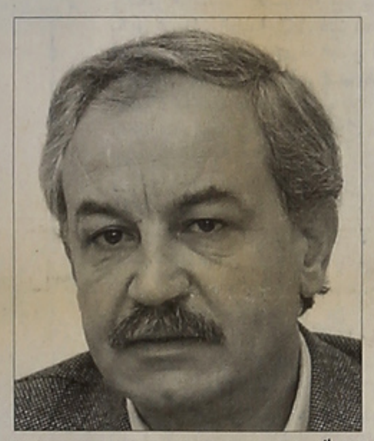
مزرعاني.

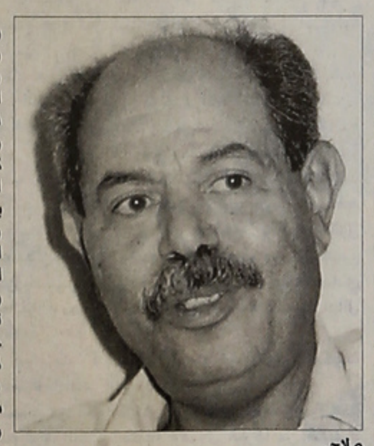
صلاح.

وحاولت اصلاح الامور بعد حوادث حصلت هناك، ولو ان الوضع لم يكن مرتاحا. وعندما عدت بعد الظهر، وكنت علمت بالحادث في عين الرمانة توجهت الى المنطقة والتقيت أحد ضباط قوى الامن الداخلي في المكان فسألته ماذا حصل، فأجابني ان بيار الجميل حضر صباحا لتدشين كنيسة في الطبقة الارضية من أحد المباني. وقبل وصوله نشروا عناصر من بوليس الكتائب بأحزمة حمر في كل المكان، من شوارع عين الرمانة الى بولفار الحدث. واضاف الضابط ان "بوسطة" مـلأى بالفلسطينيين مرت صباحا في المنطقة متوجهة الى احتفال في حرج بيروت، وكان الركاب مسلحين ومروا دون ان يعترضهم أحد. وبعد فترة، مرت سيارة صغيرة امام الكنيسة، وسمع الضابط طلقة نار، وخرج ليستطلع دون ان يرى شيئا، الا انه لاحظ ان سيارة مسرعة انقلبت وهي تحاول الخروج الى بولفار الحدث، وسارع مع عناصر قوى الامن في سيارة جيب الى المكان وهناك سمع صوتا يستغيث فسأل الضابط السائق الجريح عما به، وكان سقط في قناة الى جانب الطريق فأجابه: "اطلق الكتائب النار علي". ثم سأله الضابط: "الى أين تريد الذهاب"؟ فأجاب: "الى مستشفى القدس".

ونقله مع العناصر الى المستشفى.

ثم اضاف الضابط ان "البوسطة" التي مرت صباحا، عادت بعد الاحتفال لتمر بالمكان نفسه ولم يكن ظاهرا فيها اي سلاح، فتعرضت لاطلاق نار غزير في اتجاهها وفي اتجاه ركابها من النساء والرجال والاطفال. وذكر يومها ان الناجي الوحيد في "البوسطة" كان السائق، وقيل لي انه مسيحي من بسكنتا، بينما الركاب فلسطينيون وقتلوا جميعاً".

واضاف اده: "تحدثت على الاثر مع العديد من المحازبين والاصدقاء، فرووا لي ان الكتائب تمنع منذ الصباح المرور في المنطقة وتتعرض للناس. وكان هذا الحادث الشرارة الاولى لبدء الحوادث. أضع كل المسؤولية على بيار الجميل الذي كان عليه ان لا يأتي بكل هؤلاء المسلحين من اجل حضوره تدشين كنيسة. وطبعا قتلوا فلسطينيا غير مسلح في السيارة، ثم تركوا "البوسطة" تمر صباحا وكان فيها مسلحون وسلاح ظاهر، وعادوا بعد الظهر واطلقوا النار عليها لدى عودتها ولم يكن فيها سلاح ظاهر. وهذا الحادث في رأيي ادى الى رد فعل فلسطيني اشعل الحرب في لبنان".

عمار

الوزير السابق محمود عمار الذي كان وزيرا للاعلام في حكومة الرئيس رشيد الصلح آنذاك قال:

"كان ١٣ نيسان يوما مشؤوما في تاريخ لبنان انطلقت منه شرارة الحرب التي عمت اكثر المناطق. وان قراءة هذا الحادث لمعرفة اللغز الكبير الذي كان يقف وراءه لا يمكن فصلها عن قراءة حوادث مماثلة وسابقة شكلت مقدمات له.

عام ١٩٥٨ حصلت حادثة مقتل المغفور له الاستاذ نسيب المتني، وعام ١٩٧٥، حصلت حادثة مقتل المغفور له النائب معروف سعد، وتبعت هذين الحادثين حوادث أمنية متفرقة.

وجاء يوم ١٣ نيسان وكانت الاجواء مشحونة والنفوس معبأة وانطلقت الشرارة التي فعلت فعلها في اشعال الحرب.

واذا تتبعنا هذه الحوادث كلها وتحققنا في ما آلت اليه، وحاولنا ان نحوط بكل ظروفها وملابساتها واطلعنا على التحقيقات التي اجريت والاتهامات التي وجهت، تأكد لنا ان وراء كل حادثة عملية تخريب واشعال فتنة.

حادثة مقتل المتني عام ١٩٥٨ افتعلت للتحريض على الرئيس الراحل كميل شمعون وانصاره بحجة رغبته في التجديد.

وحادثة مقتل سعد افتعلت للنيل من سمعة الجيش كرمز للسيادة وحفظ الامن ولمنعه من التدخل في الحوادث الامنية.

اما حادثة عين الرمانة فقد افتعلت نار الحرب.

بعد قراءة كل هذه الحوادث يتبين لنا ان خطة جهنمية وضعت ورسمت وتوزعت فيها الادوار للنيل من استقرار لبنان وازدهاره وعيشه المشترك الذي كان ينعم به في الخمسينات والستينات وقسم من السبعينات.

اما اللغز الكبير عمن يقف وراء كل هذه الحوادث ويفتعلها ويمولها فهم المتضررون من وجود لبنان في هذه الحال التي وصفنا، والمستقبل كفيل اماطة اللثام عنهم".

اسكندر غانم

العماد المتقاعد اسكندر غانم الذي كان قائداً للجيش عام ١٩٧٥ قال:

" ١٣ نيسان ١٩٧٥ تاريخ لا يمكن كل لبناني مسؤول في تلك المرحلة ان ينساه. اما ما كان سببه، فهو بمعرفتي الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان، في ظل مؤامرة حاكما العدو الاسرائيلي للنيل من كيان لبنان.

سامح الله اللبنانيين الذين انخدعوا بالاهداف المعلنة للقضية الفلسطينية وساروا عن حسن نية في ركاب المؤامرة.

يجب ان تبقى تلك المرحلة الصعبة في ذاكرة اللبنانيين، لاخذ العبر منها وعدم الوقوع مجدداً في مثل هذه الحوادث الأليمة".

مزرعاني

نائب الامين العام للحزب الشيوعي سعدالله مزرعاني الذي كان آنذاك عضو قيادة الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية والامين العام لاتحاد الشباب الديموقراطي قال:

"تتيح المسافة التي تفصلنا عن تلك الحادثة الدامية ان نعيد ترتيب افكارنا وتقديراتنا خارج انفعالات اللحظة والمرحلة، واسارع الى القول ان حادثة "البوسطة" في عين الرمانة كانت مصادفة تعسة تحولت في الوقت عينه القشة التي قصمت ظهر البعير. لم يكن احد من ركاب البوسطة قد قرر الذهاب عمداً الى الاستفزاز المفتوح على المجازفة والموت. ولا كان المفرجان الذي تقيمه الكتائب مدبراً بالطريقة التي تحوله مجرد كمين ينتظر ركاب البوسطة ليوسعهم رصاصاً وقذائف ومتفجرات.

ان عوامل فاعلة ومؤثرة في الوضع اللبناني، بتداخلها مع عوامل اخرى فاعلة ومؤثرة في الوضع الاقليمي، كانت بلغت ذروة اكيدة من تزود عناصر التأزم والتفجير: هزيمة العرب الكبرى عام ١٩٦٧، نشوء العمل الفدائي الفلسطيني كتطور نوعي في التعبير عن الدور الفلسطيني بعد الخيبات المتلاحقة والنكسة المستجدة، احداث "ايلول الاسود" في الاردن عام ١٩٧٠، ثم وفاة (الرئيس المصري) جمال عبد الناصر بعيد ذلك في اواخر ايلول من العام نفسه، خروج معظم قوات الثورة الفلسطينية الى لبنان لممارسة دور سياسي وعسكري من ارضه وعليها، تضييع نتائج حرب تشرين عام ١٩٧٣ عبر تفرد رئيس جمهورية مصر آذاك انور السادات وانفراط عقد العرب الى جهات متناحرة ومتقاتلة.

وعلى الصعيد اللبناني، كانت عوامل الانفجار المحلية والوافدة بلغت ذروتها هي الاخرى: منذ انتخابات عام ١٩٦٨ التي شهدت تكريساً رسمياً للانقلاب على المحاولة الشهابية الاصلاحية عبر نشوء "الحلف الثلاثي" ذي الصبغة الطائفية المباشرة، الى ارهاق الوضع اللبناني بثقل الوجود الفلسطيني السياسي والعسكري، الى جنوح جزء من "البورجوازية" اللبنانية نحو التخلي عن الخيار الديموقراطي الذي كانت اقترحته "الحركة الوطنية" ثم افقده قاعدته وصدقيته قدوم قيادة الثورة الفلسطينية واكثرية عناصرها الى لبنان.

وكان الوضع اللبناني ينوء ايضاً باتساع حدة التمايزات والامتيازات التي يولدها في شكل دائم النظام السياسي الطائفي اللبناني، كذلك بالتناقضات الاجتماعية والتفاوت بين المناطق، ونشوء احزمة البؤس حول بيروت وانحسار ازمة النمو والازدهار التي شهدها النظام اللبناني في الستينات.

ولعل اخطر ما تمخض عن ذلك، استسهال تعطيل دور الدولة او السلطة وانماؤه تدريجاً على نحو مأسوي جعل كل الاطراف اللبنانية رهينة الخارج. ان خسارة الدولة كانت في الواقع خسارة لاداة ثمينة من شأنها ان تشكل مرجعاً للبنانيين واداة توظيف جهودهم لبلوغ حل لن يجد من يحمله ويكرسه بغياب السلطة الواحدة الموحدة.

ويقتضي الانصاف ان نقول ان تعطيل دور الدولة وتدمير معظم اجهزتها كان مهمة سلبية تناوب على تنفيذها الجميع من دون استثناء لبنانيين وعرب واجانب. غير ان الانصاف نفسه يقتضي ان نشير الى مسؤولية مختلفة، لاولئك الذين كانت مقاليد الامور بيدهم.

هؤلاء يتحملون المسؤولية الاكبر: امتنعوا عن اجراء حوار جدي بين القوى اللبنانية الفاعلة، وضعوا "الفيتوات" على رمز كبير للوطنية والاعتدال اللبنانيين هو الشهيد كمال جنبلاط، سخّروا السلطة لخدمة فريق ومنعوها من القبول بالحلول الوسط (الوثيقة الدستورية عام ١٩٧٦... قرارات القمم العربية...).

وفي السياق نفسه من محاولة الانصاف، نقول ان الحركة الوطنية جنحت هي الاخرى الى محاولة احداث تغييرات في النظام السياسي بوسائط خارجية (الوجود الفلسطيني)، واستسهلت التخلي تدريجاً عن دورها لمصلحة دور فلسطيني كان يتجه تدريجاً الى التحول عن دور الثورة من لبنان الى انشاء دولة في لبنان يتعارض دورها ووجودها مع مصالح لبنان من جهة ومصالح نضال الشعب الفلسطيني من جهة اخرى.

ينبغي ان نعيد جميعاً قراءة حوادث تلك المرحلة بروح مسؤوليتنا، كلبنانيين، عما حصل في بلادنا، وخصوصاً لبلادنا. لقد سقطت مؤسساتنا في ذلك الاختبار، ووجدتنا الطائفية بدت هشة وعاجزة عن الصمود، ونظامنا السياسي تكشف عن علل بنيوية لا بد من تداركها عبر التخلص من الطائفية، كما بات ينص على ذلك دستورنا بعد الطائف.

جبلنا، ولم يكن يستعد لحرب اهلية، كانت تراوده احلام التغيير الكبير. خرجنا من الجامعة الى اتون صراع همشنا، ثم ألفى دورنا ثم كاد يودي ببلدنا، سيكون اخطر مما حصل الا نستفيد من دروسه. من اجل ذلك، "تنذكر" كي يستفاد من دروسها، وخصوصاً لئلا تتكرر. ان المصاعب ما زالت تحيط بنا من كل صوب. لم نتقدم كثيراً في مجال معالجة الخلل الطائفي الضارب في عمق نسيجنا السياسي والاجتماعي. معالجة ذلك اولوية مطلقة منعاً لمصادفة مأسوية اخرى تقصم ظهر الوطن هذه المرة، لا ظهر البعير فحسب!".

صلاح

المسؤول السابق في "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" صلاح صلاح الذي كان آنذاك عضو المكتب السياسي للجبهة مندوبها في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قال:

"الاجابة المباشرة التي تستند الى وقائع ما حصل في ذلك اليوم ومًا بعده، هي ان الكتائب تقف وراء الحادثة، ومعطيات ذلك ليس ما صدر عن الطرف الفلسطيني، ولا المكان الذي وقعت فيه الحادثة، ولا المواقف التي اعلنتها الاطراف الوطنية اللبنانية فقط، وانما ايضا ما أكدته البيانات الرسمية الصادرة عن رئيس الحكومة في تلك المرحلة ولأن اللذين سلما الى العدالة هما من حزب الكتائب، علما ان قيادة الحزب ورئيسه الشيخ بيار الجميل نفيا اي صلة لهما بالحادثة. لكن الامر في رأيي لا يقف عند حدود من نفذ الحادثة ومن يقف وراءها، وانما المهم لماذا وقعت؟ والاهم لماذا تطورت لتشعل نار حرب استمرت ما يزيد عن ١٥ عاما؟

تقديري ان قيمة استذكار تلك المجزرة التي كانت بداية لمجازر عديدة تلت هو ان نستخلص دروسها لنتجنب تكرارها. من الاستخلاصات التي اسجلها مساهمة مع غيري ممن سيلجون هذا الطريق ما يأتي:

١– الحادثة كانت حصيلة قدر هائل من التراكمات والخلافات بين ثلاثة اطراف على الارض اللبنانية، هي الكتائب والحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية. تدور الخلافات حول قضايا لم يتمكنوا من الوصول الى قواسم مشتركة حولها ومنها:

– المقاومة الفلسطينية التي انتقل ثقلها من الاردن الى لبنان، بعد مجازر ايلول الاسود، ونظرة كل طرف لها ولدورها.

– الكتائب ترى قوة لبنان في ضعفه، واي مواجهة مع اسرائيل تعرضه للخطر، ولهذا فان ممارسة العمل العسكري عبر الارض اللبنانية تعرضها للاعتداءات الاسرائيلية، بينما الحركة الوطنية ترى مع حليفها الفلسطيني ان المقاومة الفلسطينية تمثل حركة تحرر وطني تناضل لتحقيق اهدافها المشروعة وطنيا وقوميا مما يستوجب دعمها وتأييدها.

– النظام اللبناني: ترى فيه المارونية السياسية بقيادة الكتائب كيانها وملجأها الوحيد في محيط عربي مسلم، تكونت لها فيه مصالح اقتصادية وامتيازات طائفية وسياسية تجعلها القوة المهيمنة في تركيبة هذا النظام وهيكليته. هذه كلها يهددها التحالف الثنائي الجديد (المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية) الذي يطمح الى تغيير النظام لاقامة نظام ديموقراطي اشتراكي لا مكان فيه للطائفية.

– التحالفات: للمقاومة الفلسطينية تحالفات محلية (الحركة الوطنية) وعربية واسعة، رسمية وشعبية وكذلك دولية (الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي). فأين تحالفات المارونية السياسية ممثلة بحزب الكتائب؟

٢– اسرائيل التي تقرأ بدقة وتتابع خريطة القوى في المنطقة العربية ككل وفي لبنان وخصوصا لا شك في انها تدرك كل هذا الوضع بأبعاده وحساسيته المفرطة، مما يعطيها فرصة هي الاقدر على استغلالها ولها خبرة عريقة في انشاء التناقضات وتطويرها الى صراعات. فكيف وان الامر مهيأ تماما لشرارة وتشتعل النار؟

٣– ويهمني ان اشير هنا الى ان مجزرة عين الرمانة حصلت في ظل ظروف تضع اسرائيل في موضع الشبهة عن دورها في تفجير مثل هذه الحوادث ومنها:

– ان القيادة الفلسطينية قبل ١٣ نيسان فتحت حوارات جدية مع حزب الكتائب. أذكر منها محاولتين كنت شريكا فيهما، الاولى انتهت الى اتفاق مع عدد من مسؤولي الكتائب (أمين الجميل، جورج سعادة، جوزف شادر) على وثيقة موقعة منهم تتضمن نصوصا مهمة منها "ان الاعتداءات الاسرائيلية ليس دافعها وجود المقاومة الفلسطينية، وانما الاطماع الصهيونية في جنوب لبنان ومنابع نهر الليطاني، وان المقاومة الفلسطينية ليست فصيلا طائفيا يضاف الى الطوائف الموجودة في لبنان. كما انها ليست حزبا من الاحزاب اللبنانية".

والمحاولة الثانية كانت في اطار اجتماع يضم ممثلين لكل الاحزاب والقوى السياسية اللبنانية بما فيها حزب الكتائب الذي كان يمثله المحامي صلاح مطر بغية ايجاد أجواء ايجابية في العلاقات اللبنانية – اللبنانية واللبنانية – الفلسطينية من خلال حوار هادف وبناء.

– وفي العودة الى ظروف تلك المرحلة، هناك تحركات وزير الخارجية الاميركي آنذاك هنري كيسنجر لاقامة تسوية منفردة بين مصر واسرائيل. وقد ردت سوريا على ذلك بالدعوة الى تشكيل قيادة سورية – فلسطينية مشتركة، سياسيا وعسكريا.

– زيادة الفعل العسكري للمقاومة في الداخل: ففي الشهر الذي سبق ما حدث في عين الرمانة، اعترفت صحيفة "يديعوت احرونوت" الاسرائيلية بـ٢٥ عملية عسكرية في ٢٨ يوما، منها ١٧ داخل "اسرائيل" نفسها، اضافة الى ٦ عمليات في الضفة و٢ في غزة.

سيبقى التاريخ يكرر أخطاءه اذا لم يتداركها صانعو التاريخ "البشر". لذا أكرر ما سبق ان اقترحته عبر احدى محطات التلفزة: ان مراجعة تلك المرحلة المرة تستوجب ان يتفق المعنيون بها (لبنانيون وفلسطينيون) على آلية للتقويم وتبيان مكمن الخطأ والصح عند كل طرف. ولنخرج انفسنا من تبادل التهم المستمر وخصوصا ان التجربة والوقت كفيلان تمكيننا من مناقشة هادئة وموضوعية بعيدا عن التوتر والتشنج اللذين كانا سيدي الموقف في تلك المرحلة.

ونحن الفلسطينيين بأمس الحاجة الى هذه الوقفة التقويمية سريعا، لئلا نجد انفسنا، لبنانيين وفلسطينيين، امام انفجار جديد بسبب ثلاثة عناصر:

– الوضع السياسي العام بكل ما يحمل من احباط ويأس ولدته عملية التسوية الجارية التي تتجاهل حق اللاجئين في العودة، وتجري محاولات مشبوهة لحل مشكلتهم عبر التوطين والتجنيس والتهجير.

– استمرار القوانين اللبنانية التي تمنع الفلسطينيين من الحقوق المدنية والاجتماعية، مما يحرمهم فرص العيش بشرف وكرامة، ويعرضهم لكثير من الامتهان الذي يتنافى مع ابسط حقوق الانسان.

– الاجراءات الامنية في محيط المخيمات وما تولده لدى سكانها من احتقان وشعور بأنهم ضمن سجن كبير او "غيتو"، وخصوصا منطقة صور التي لا يفهم سبب منع ادخال مواد البناء الى مخيماتها".